الف كاي . كنا (ما زلت اذكر) جالسين في كرسيين كبيرين في « فندق بيرنرز » على مقربة من «اكسفورد ستريت » . طلبت له شرابا كثيرا ، وهو لم يكن كثير الشرب . وقلت له انني ضقت ذرعا بزهده وتقشفه . كل أجود الاكل ، قلت له . لا تقبل الا بأفخر الطعام وافخر الشراب . تحدث عن الموت كأنه ليس من معارفك . تق اليه ان شئت ، ولكن لا تسع اليه . بقينا في جدل ، وعتاب ، والحاح . واستطعت في تلك الليلة ان اقنعه بضرورة عشاء فاخر . وتعشينا عشاء فاخرا . وغادرني في ساعة متأخرة وهو يعدني بالا يفعل شيئا «شاذا» قبل أن يتصل بي . ولم انم تلك الليلة ، ولم ادر كيف اقضي النهار التالي الى ان جاءني عصرا ، يضحك ضحكته الساخرة . كم مرة بعد ذلك راودته فكرة الانتحار ، لست ادري . غير انني شعرت انه يومئذ عبر الازمة بنجاح ، او ، على الاقل ، عبر ذروتها القاتلة . لان الازمة نفسها لاحقته لبضع سنوات أخر . داراها اولا لمدة سنتين بكتابة ديوان « القصيدة ك » ، وهو معها بين هازم ومهزوم ، وكأنه انسان عاد للتو من عالم الموتى ، الى ان خيل اليه انه حقق لنفسه توازنا ما ، يستمده من الكتابة من ناحية ، ومن اصراره على حياة جديدة من ناحية اخرى ، حياة راح يعلل نفسه بها طيلة اشهر الصيف التالي الذي قضاه في لبنان .

وفي ذلك الصيف بالذات ، من تلك السنة الحاسمة في حياته ، ذهبت انا ايضا الى لبنان مع عائلتي لقضاء قرابة الشهرين في سوق الغرب . هناك في فندق كامل ، كان يأتي الينا توفيق واصدقاء كثيرون. ولكن اذا جاء توفيق بمفرده، جاء حاملا مخطوطة «القصيدة ك». ولاول مرة راح توفيق يقرأ، اجل يقرأ، قصائده علىواحدةواحدة.كثيرا ما كنا نسيرفي ذلك الطريق الجميل بين الفندق وقرية كيفون ، وهو يقرأ شعره الصعب ، المكهرب ، الناتىء . ثم ننتهي الى مقهى في كيفون يشرف على وديان ورواب نحبها (تذكرني بوديان وروابي طفولتي في بيت لحم) ، ونعيد قراءة القصائد من جديد . كنت اشعر ان هذا الشاعر الذي لا يقراه الا القلة العارفون ، يحاول في وحشته ان يصهر اللغة ، قديمها وحديثها ، اليفها ووحشيها ، في بوتقة صنعها بنفسه ، ليعيد سبكها في قوالب من خلقه. لم يتوقع اعترافا بعبقريته من احد ، ولم يرد ذلك. فبقدر ما كان يصارع رؤياه، الملأى بالحب والجراح والنفي ، الملأى بأصوات تتقارع جيئة وذهابا بين الله والشيطان ، هكذا كان يصارع كلماته نفسها في عزلة يضربها على نفسه ، غير مستهد الا بذلك الاشعاع الذي يحسه في جوهر دخيلته . وكان في تجربته الذوبان في ذات الله او المسيح ، شق يناقضها هو التمرد على كلما نشأ عليه من ايمان. وعلى غرار ذلك ، كانت تجربته مع اللغة : ايمانا بها وتمردا عليها . ولم يكن تمرده الا الوجه الآخر لايمانه ، وكلاهما مشحون بالغضب ، والنزق ، والشهوة ، والسخرية . لم يكن غريبا على من حملق بوجه الموت مدة طويلة ، الا يخشى حكما من اناس اقاموا انفسهم سدنة مزعومين للغة .

صبيحة يوم أحد ، في ذلك الصيف ، خرجنا انا وزوجتي وتوفيق ورياض نجيب الريس ، في سيارة كبيرة يسوقها رياض ، للصعود الى جبل صنين . وبعد مسيرة طويلة في فجاج ملتوية ، يمتد بعضها بمحاذاة وادي الجماجم ، جئنا الى ممر شديد الضيق ، متهافت الصخر ، على يسارنا جدار الجبل ، وعلى يميننا واد سحيق الانحدار . على كتفه ، في ذلك الممر الخطر ، قابلتنا سيارة فولكسواغن صغيرة ، وكان على رياض ان يحيد قليلا الى اليمين ليسمح لها بالعبور عن يساره . وما ان فعل ذلك ، وقد أبطأ السير جدا بالطبع ، حتى شعرنا ان الدولاب الامامي على اليمين ، قد اصبح في الفضاء او كاد — فوق الشفير المتداعي . فأوقف رياض السيارة ، وخرجنا جميعا قبل أن تنقلب بنا . خرجنا جميعا ، الا توفيق . وحده بقي قابعا في زاويته في المقعد الخلفي . لم يتزحزح . لم يعن له الموت شيئا ، فلم يخف الانهيار . رفض النزول ، بل انه سخر منا ، لاننا أسرعنا بالنزول من السيارة . وظل مكانه بقميصه الابيض ، مكتوف الذراعين الى ان تعاونا مع سائق الفولكسواغن على تحريك السيارة بعيدا عن حافة الهاوية .. وعبرنا الخطر .

غير ان المزيد من الالم كان في انتظار توفيق عند عودته الى انكلتره ، وكان عليه بعد صدور « القصيدة ك » ان يداري امتداد محنته ردحا آخر في لندن كيفما استطاع . لقد حسب انه بهجره كاي وكتابة ما كتب فيها ، قد انتهى منها ، غير انه كان عليه بعد بضعة اشهر ان يفرغ دمه منها بكفارات جارحة جديدة ، وكتابة قصيدة اخرى دعاها، عندما نشرها أولا في مجلة «شعر» ، «القصيدة الاخيرة»، ظنا منه انه لن يجد بعدها ما يحرك فيه شهوة الشعر ثانية قط .